ايفلين

قصة بقلم جيمس جويس

ترجمة فايز صياغ

جلست الى جانب الشباك ترقب الماء وهو يزحف الى الشارع وقد لامس رأسها ستائر الشباك التي كانت تنبعث منها رائحة القطن المغبر . كانت متعبة . ومر بضعة اشخاص . ومر الرجل الساكن في آخر الشارع متوجها الى بيته وسمعت وقع خطاه على رصيف الاسمنت، ثم قرقشتها على الممر الرمادي امام البيوت الحمراء الجديدة . في وقت ما كان ثمة ساحة اعتادوا ان يلعبوا فيها مع اولاد الجيران . ثم اشترى هذه الساحة رجل من بلفاست وبنى عليها بيوتا ، ليست كبيوتهم الصغيرة القائمة ، بل بيوت ذات حجارة براقة وسقوف لامعة. وفي تلك الساحة كان اولاد الشارع يلعبون سويه ـ آل ديفيز ، وآل ووتر ، وآل دن ، وكيوت الكسيح الصغير ، وهي وأخواتها وأخواتها . لكن أرنست لم يكن يشاركهم اللعب ابدا ، فقد كان يعتبر نفسه اكبر من ان يلعب . وكان والدهم غالبا ما يتصيدهم بعصاه ذات العقد السوداء . غير ان كيوت الكسيح الصغير اعتاد ان يصيح فيهم محذرا عند قدومه . غير انهم كانوا سعداء على كل حال . ولم يكن والدها شريرا آنذاك . وفوق ذلك فقد كانت أمها على قيد الحياة . كان ذلك من زمن بعيد . اما الان فقد كبرت واخوانها واخواتها ، وتوفيت امها . وتوفي تيزي دن كذلك . وعاد آل ووتر الى انكلترا . لقد تغير كل شيء . أما هي ، فقد عقدت العزم على مغادرة البيت كما غادره الاخرون .

البيت ! وأجالت طرفها في الغرفة متفحصة كل الاشياء المألوفة التي كانت تقوم بنفض الغبار عنها كل اسبوع ولسنوات عديدة ، وهي تعجب من اين كان يأتيها الغبار . من المحتمل انها لن تمتع نظرها مرة اخرى بهذه الاشياء المألوفة التي لم يدر بخلدها انها ستفارقها ابدا . الا انها لم تستطع ، خلال هذه السنوات ، ان تعرف اسم الكاهن الظاهر في الصورة الصفراء المعلقة على الحائط فوق الارغن المكسور ، الى جانب النسخة الملونة للعهد الذي قطعته على نفسها أمام مارغريت ماري الكوك المباركة . لقد كان زميلا لوالدها ايام الدراسة . وكان والدها يقول ، دونما اكتراث ، كلما عرض تلك الصورة على زائريه :

« انه الان في ملبورن » .

لقد ارتضت الرحيل ومفارقة البيت . هل من الحكمة ان ترحل ؟ وحاولت ان تزن كل جانب من المشكلة . في بيتها سيتوفر لها المأوى والغذاء . وستكون محاطة باولئك الذين عرفتهم طيلة حياتها . بالطبع سيكون عملها شاقا سواء في البيت او في المتجر . ترى ماذا سيقولون عنها في المتجر عندما يكتشفون هربها مع حبيبها ؟ سيقولون انها مغفلة . اما مكانها الشاغر فسوف يملأونه عن طريق الاعلانات . سوف تبتهج الانسة غاثان بالتأكيد . فقد كانت دوما سليطة اللسان عليها ، خاصة على مشهد من الناس .

« آنسة هيل . ألا ترين ان السيدات ما زلن ينتظرنك ؟ »

« كوني نشيطة يا آنسة هيل ، أرجوك » .

انها لن تذرف دمعة واحدة على فراق المتجر .

ستكون حالتها مختلفة جدا في بيتها الجديد ، في باد بعيد مجهول . ستكون عندئذ قد تزوجت ـ هي ، ايفلين . وسيعاملها الناس بكل احترام وستلقى من التقدير ما لاقت امها . فبالرغم من انها تجاوزت التاسعة عشرة من عمرها ، فقد كانت تحس بالخطر يتهددها من جراء عنف والدها . وذلك ما كان ينغص عليها حياتها . فان أباها لم يكن يميل اليها ميله الى هاري وأرنست لانها كانت بنتا . لكنه بدأ يتهددها مؤخرا . ويقول ان ذكرى والدتها المتوفاة فقط هي التي تمنعه من عمل ما يريد . وهي الان لا تجد من يستطيع حمايتها . فقد توفي ارنست . وانتقل هاري ، الذي يشتغل في زخرفة الكنائس ، الى مكان ما في الريف . وفوق ذلك ، فانها قد بدأت تضيق ذرعا بالشجار الدائم للحصول على النقود مساء كل سبت . كانت تتنازل عن كل راتبها البالغ سبعة شلنات . كما ان هاري يرسل ما يستطيع توفيره . اما المشكلة فكانت تنحصر في كيفية الحصول على أي من تلك النقود من ابيها الذي اعتاد ان يتهمها بالتبذير والهوس، ويقول انه لن يعطيها النقود المحصلة بعرق الجبين لكي تبعثرها في الشارع . وعلى هذا المنوال كانت تنقضي ليلة السبت التي تزداد فيها طباعه شراسة . لكنه كان يمنحها اخر الامر ، بعض النقود ، ثم يسألها فيما اذا كانت تنوي ابتياع غداء يوم السبت . وعندها يصير لزاما عليها ان تنطلق الى السوق لشراء الحاجيات . حاملة حقيبتها السوداء وهي تشق طريقها وسط الزحام ، ثم تعود الى البيت اخر النهار وهي تتصبب عرقا تحت ما تحمله من مؤونة . وكان عليها ان تحافظ على البيت وتعنى بأمر الطفلين اللذين كانا تحت رعايتها ، وان ترافقهما الى المدرسة بانتظام وان تطعمهما بانتظام . كان عملها شاقا وكذلك كانت حياتها . اما الان ، وقد عزمت على مغادرة البيت ، فانها لم تكن تجده غير مرض الى هذا الحد .

كان عليها ان تخوض غمار حياة جديدة مع فرانك ، وهو انسان لطيف وطيب القلب . وستهرب معه في القارب ليلا لتكون زوجته وتعيش معه في بيونس آيرس حيث سيسكنان البيت الذي أعده لكليهما . انها تذكر جيدا تفاصيل لقائهما الاول ، كان يقطن في بيت في الشارع الرئيسي حيث كانت تقوم ببعض الزيارات . وكان من عادته ان يقف على بابه ، وقد انحسرت قبعته عن خصلة من الشعر تتناثر على وجهه البرونزي . وكان ان تعارفا بعد ذلك . وتقابلا خارج المتجر وفي البيت . واخذها مرة لمشاهدة مسرحية « البوهيمية » ، وأحست بالزهو حينما انتحت واياه ركنا قصيا من المسرح . لقد كان مغرما بالموسيقى الى حد الجنون ، ويحب الغناء قليلا . وعرف الناس بأنهما كانا يتغازلان عندما كان يغني لها أغنية الصبية التي أحبت بحارا. وأحست دائما بارتباك لذيذ عندما كان يلقبها بالدلوعة متحببا . وفي بادىء الامر أحست بالحرج لمصاحبتها احد الشباب ، ثم ابتدأت تحب ذلك ، خاصة عندما قاما يقص عليها الكثير من الحكايات عن البلدان النائية ، فقد شرع حياته بحارا بسيطا لمدة شهر على ظهر سفينة متوجهة الى كندا . وأخبرها بأسماء السفن التي سافر عليها ، والوظائف المختلفة التي شغلها . وقص عليها كيف أبحر عبر مضيق ماجلان . وحكى لها حكايات البتاغونيين المرعبة ، وكيف ان رجاله الموت في بيونس أيرس ، وكيف جاء بعد ذلك لقضاء العطلة في بلاده . وبالطبع ، فقد اكتشف والدها الامر ومنعها من محادثته قائلا :

« انني أعرف هؤلاء البحارة الصبيان » .

وذات يوم تشاجر والدها مع فرانك ، فتوجب عليها ان تقابل حبيبها سرا .

تكاثفت حلكة المساء في الشارع ، فلم تعد تميز ابيضاض الخطابين الراقدين في حضنها . كان أحد الخطابين لهاري ، والاخر لوالدها . لقد كان ارنست هو الحبيب الى نفسها ، لكنها أحبت هاري ايضا . ان الشيخوخة توهن اباها ، وسوف يفتقدها كثيرا . لقد كان لطيفا جدا معها في كثير من الاحيان . فمنذ زمن غير بعيد عندما أثقل عليها المرض ، قرأ لها قصة عن الاشباح ، وشرب نخب صحتها وهو واقف

الى جانب المدفأة . وفي يوم آخر ، عندما كانت امهم على قيد الحياة ، اخذهم في نزهة الى هاوت . وتذكرت كيف ارتدى قبعة والدتها ليحمل الاطفال على الضحك .

كان الوقت يمر بسرعة ، ولكنها بقيت الى جانب الشباك وقد أمالت رأسها الى الستائر وهي تستنشق رائحة هباب القطن المغبر . وأصاخت اذنيها تتسمع الى لحن صادر عن أرغن في أسفل الشارع . انها تعرف اللحن . وعجبت كيف عزف في هذه الليلة بالذات ليذكرها بالعهد الذي قطعته على نفسها امام امها بأن تعمل جهدها للمحافظة على البيت . تذكرت اخر ايام امها على فراش المرض ، وأحست بنفسها ثانية في الغرفة المعتمة المغلقة في الجانب الاخر من الصالة ، وفي الخارج كان ثمة لحن ايطالي حزين . وقد طرد عازف الارغن بعد ان منح ستة بنسات . وتذكرت كيف عاد والدها الى الغرفة وهو يقول :

« اللعنة على هؤلاء الايطاليين ! كيف وصلوا هنا ؟! »

وفي الوقت الذي كانت تفكر فيه ، كان طيف الحياة التعيسة التي عاشتها امها يهوم حولها . الحياة التي تصرمت في تضحيات بسيطة وعادية ، وانتهت بالجنون . وأخذتها الرعدة حين سمعت مرة صوت امها وهي تردد باصرار أحمق :

« انتبهي للبيت ! انتبهي للبيت ! »

نهضت وقد تملكها الرعب . الهرب ! يجب ان تهرب ! سوف ينقذها فرانك . سوف يهبها الحياة ، وربما الحب ايضا . لكنها تريد ان تحيا . لم لا تكون سعيدة ولها الحق في ذلك ؟ سوف يأخذها فرانك بين ذراعيه ، ويطويها ، ويحتضنها . انه سوف ينقذها .

وقفت في خضم الجماهير المائجة في محطة نورث هول ، وأمسك فرانك بيدها وعرفت انه كان يكلمها ، ويقول لها شيئا ما عن العبور بين الفينة والفينة . كانت المحطة تزخر بالجنود ذوي الحقائب البنية. ومن خلال أبواب مظلات المحطة الواسعة لمحت الزورق بجرمه الضخم مشدودا الى حائط الميناء وقد اضيئت نوافذه . ولم تنبس ببنت شفة، لكنها أحست بالشحوب والبرودة يسريان الى خديها ، وتضرعت الى الله ، في غمرة عذابها ، ان يسدد خطاها وان يرشدها الى ما يتوجب عليها عمله . وأطلق الزورق صفرة طويلة كئيبة اخترقت الضباب الكثيف . اذا ذهبت ، فستكون غدا ، هي وفرانك ، يمخران البحر في طريقهما الى بيونس ايرس ، فقد حجز فرانك مكانا لكليهما . ترى ، هل تستطيع التراجع بعد كل ما فعله من اجلها ؟ وأحست بعذابها ينقلب الى غثيان يمور في روحها ، لكنها استمرت تحرك شفتيها في صلاة محمومة .

وقرع جرس كما لو كان قد قرع على قلبها ، وأحست به يمسك بيدها .

« تعالي ! » .

شعرت بقلبها يتخبط في جميع ما في الارض من بحور . لقد كان فرانك يدفعها ، يريد ان يفرقها . وشدت بكلتا يديها على السياج الحديدي .

« تعالي ! » .

كلا ! كلا ! كلا ! مستحيل . وتشبثت بالحديد بجنون ، وانطلقت من حنجرتها صرخة معذبة .

« ايفلين ! ايفي ! »

واندفع اليها عبر السياج وهو يهتف لها ان تتبعه . لكن بعض الاصوات تعالت آمرة اياها بالعودة . اما هي فقد أدارت اليه وجها أبيض لا حياة فيه ، كحيوان صغير عاجز . ورمته بنظرة لا تحمل اي معنى من معاني الحب ، او الوداع او المعرفة .

فايز صياغ

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السام

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت